مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 06 عدد: 02 السنة 2020 E-ISSN:2588-2325

البراديغم البنائي في فهم تحولات السكن داخل الفضاء الصحراوي دراسة أنثروبولوجية في مدينة الواحات (ورقلة)

Structural paradigm In understanding housing transformations within the desert space an anthropological study in the city of Al-Wahat Ouargla

قصي عطية*، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، koussai.attia@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/09/23 تاريخ القبول: 2020/10/20 تاريخ النشر: 2020/12/08

ملخص:

إن مدى استجابة هذه الدراسة الميدانية للعديد من القضايا المهمة التي كانت عالقة في ثنايا البحث الاثنوغرافي لمدن الجنوب الجزائري، متعلقة بالتنظير الإبستيمولوجي في فهم البراديغم البنائي لهذه المجتمعات الصحراوية وكيفية تفاعلها مع السكن في دورة حياتها، ليصبح مفهوم السكن أكثر مرونة وفاعلية داخل هذه الفضاءات المتنوعة، لكل من السكان المحليين والبدو المتمدنين وكذلك الوافدين الجدد، إنها فسيفساء بشرية مختلفة أوجدها واقع التحضر، وساهم في اكتظاظها وتوزعها داخل هذا المجال المميز من خلال تعبيراته العمرانية التقليدية والحديثة، تقاطعات سوسيوثقافية، تعدد الهويات، كلها كيانات فاعلة في بناء الواقع الحضري في هذه المدينة قيد التشكل، حيث تمنحنا هذه الورقة البحثية انطلاقة تمكننا من استقصاء المعطيات وطرحها هنا بشكل سلس ومرن دون اغفال أحد جوانبها الفينومينولوجية.

الكلمات المفتاحية: السكن، التحولات، الفضاء الصحراوي، الأنثروبولوجيا.

Abstract:

The extent to which this field study responds to many important issues that have been stuck in the ethnographic research of southern Algerian cities, related to epistemological endoscopy in understanding the structural braidome of these desert communities and how they interact with housing in their life cycle, to make the concept of housing more flexible and effective within these diverse spaces, for both the

* المؤلف المرسل

local population and the urban bedouins as well as the newcomers, it is a different human mosaic created by the reality of urbanization, and contributed to its overcrowding and distribution within this privileged area through its traditional and modern urban expressions, swisscultural intersections, multiple identities, all entities active in building the urban reality in this city under formation, this paper gives us a start that enables us to investigate the data and put it here in a smooth and flexible manner without losing sight of one of its phénoménologie aspects.

Key words: The dwelling, Transformations, Desert Space, Anthropology.

مقدمة:

إن اقترابنا المنهجي والنظري لمفاهيم السكن وخلفياته الضمنية عبر الكثير من التعريفات والمقاربات المتنوعة ..!تظل قاصرة يشوبها الكثير من الغموض والنقائص المعرفية، حول ما يتضمنه هذا البناء المادي الدينامي والمتحول في معطياته العديدة والمختلفة باختلاف تفاعله مع استراتيجيات الإنسان من مكان لآخر ومن بيئة إلى أخرى، لذلك حاولنا القيام بتفعيل أبجديات البحث الأنثروبولوجي في تتبع ميكانزمات تحول السكن في مدن الجنوب الجزائري، وما ترتب عنها من تغيرات في نسيجها العمراني التقليدي مؤخرًا، عن طريق توسيع دائرة التحليل الإثنوغرافي معتمدين في ذلك على التقنية الكيفية في الفهم والتأويل.

إن السكن هو قطعة فنية خاصة لها مميزاتها داخل النسيج العمراني التقليدي الصحراوي في مدينة الواحات، إنه ذلك الكيان المورفولوجي المادي المرصع بثقافة قاطنيه في كل أجزائه الظاهرة والمخفية، بل يتعدى ذلك إلى انغماسه في ثنائية الرمز والمخيال، فالمسكن ليس كيان مورفولوجي أوجده الإنسان عبر حتميات عديدة تتنوع فيه مجالات الهندسة والابداع الايكولوجي فقط، بل هو العالم في شكله الصغير بالنسبة له، ولعل استنطاقنا لواقع التحولات الآنية في السكن داخل هذا الفضاء الصحراوي عبر مرورنا بالتحليل الظاهراتي هو بالفعل نوع من المغامرة البحثية الأنثروبولوجية في حقول التركيبة السكانية المختلفة لهذه المدينة، كذلك الحضور الضاغط للوافدين إليها وما ترتب عليه من تغذية النسيج العمراني ودفعه إلى الانتقال من النسيج المتشابه والمتجانس نتيجة لظروف ثقافية وإيكولوجية خاصة، إلى نسيج عمراني متباين وغير واضح المعالم، خصوصًا بعد التحول من

المجتمع التقليدي الزراعي إلى المجتمع الحضري الاستهلاكي، حيث خصصنا مجال للحوار مع المبحوثين من جهة و الإخباريين من جهة أخرى، لأن الباحث هنا يسعى من أجل الفهم أكثر، ويفسر السلوكيات خاصة الكلامية منها ويعزز فهمه بأنساق ثقافية أو دينية لبناء تمثلات ذهنية وعامة لهؤلاء[1]، و الذي من شأنه إثراء البحث و كذلك إزالة الغموض على رمزية الفضاء المادي العمراني في ذهنية قاطنيه، ومدى انغماسهم في هذه التحولات بعد مسايرتهم لواقع التحضر.

1. البعد الهوياتي للسكن في مدينة الواحات: انتماء وأصالة

إن الباحث المتتبع لمختلف الأواصر الإبستيمولوجية في الأنثروبولوجية الحضرية ومدى اقترابها وفهمها للنسيج العمراني في مدينة الواحات ورقلة، يجد أن السكن ليس ذلك الكيان المورفولوجي الذي شكلته بعض العوامل البيئية الخاصة.. !!، إنما يتعدى ذلك إلى الهوية الرمزية في شكلها المادي، الذي يتجلى للعيان معبراً على الخلفية الفكرية والثقافية لقاطنيه، يضفي على جدرانه الصماء حركية تفاعلية روحية وخصوصية ثقافية واجتماعية لأفراده، إنه العالم في شكله الصغير الذي يوفر لساكنيه الأمن والاستقرار، وسط مجموعة من العلاقات الحميمية المغلقة في حيزه الداخلي، معبراً كذلك عن مدى قدرته على احتضان وحفظ خصوصية أفراد الأسرة بين عرصاته الشامخة، يتجاوب هو الآخر مع دورة حياة الأسرة ليجسد استراتيجياتها المختلفة في التعامل مع المجال العمراني ككل، من خلال تفاعلات وسلوكيات ذات طابع اقتصادي واجتماعي يفرزها المخزون الثقافي للأفراد والجماعات، بداية من التصميم الهندسي وصولاً إلى شكله المثالي في مخيالهم ومدركاتهم، إنه يكتسب تلك المرونة والدينامية في مركباته المادية والروحية القابلة للتغيير وفق ما يتناسب ومتطلبات أفراد الأسرة، فهو بالنسبة للأنثروبولوجيين نقطة تمركز هامة وواعدة لفهم الذات والعالم في حلقة مورفولوجية منفتحة ومغلقة في نفس الوقت، إنه شكل من أشكال تعبيرات الهوية الذاتية (السكن) والهوية الجماعية (الحي، المدينة).

إن هذا النموذج من السكنات التقليدية التي نشاهدها داخل القصر العتيق، ما هي إلى نسيج مادي يعبر عن تضافر وتماسك العلاقات الاجتماعية و الثقافية بين أفراد كل من قبيلة (بني سيسين، بني واقين، بني ابراهيم)، يقول الباحث خليفة عبد القادر... إن العلاقات السلالية لاتزال تحدد المسار العمراني والفعل الاجتماعي في المدينة وفي الواحات، التملك والسلطة يمران حتماً عبر الانتماءات

[1] Dan Sperder. « L'étude anthropologique des représentations, problèmes et perspectives », in les représentations sociales sous la direction de Denise jodelet, sociologie d'aujourd'hui, Puf, Paris, 1989, P 122.

القرابية التي لا تزال تشكل الحامي للبنية الاجتماعية [1] والتي تعكس لنا قيمة تواجدهم في ذلك التصميم المشترك، الذي يملك خصوصية التشابه في جوانبه الجمالية والشكلية تماشياً مع هذا الفضاء الصحراوي، وأيضا نماذج بعض السكنات التقليدي الموزعة عبر فضاءات تواجد البدو المتمدنين، التي بقيت تصارع هي الأخرى مع نسيجها المميز هذا التآكل الذي أفرزه واقع التحضر في كافة تجلياته وأبعاده، معلناً بداية تشكل الحضرية في الصحراء الجزائرية دون تفكير ابستيمولوجي حي يرافق هذا المرور و التحول من خلال تركيبة البنيات الاجتماعية لهذا المجتمع المميز في خصوصيته وبرديكماته، ومحاولة فهما وتقصي مدى قبلوها أو رفضها لهذا الانفتاح الغير مسبوق في هذه المدن التي ظلت منعزلة عن نفسها ردحاً من الزمن.

إن الرواسب السوسيومجالية وبعدها الوظيفي دائما ما ينحصر كل منها في نمط خاص يحاكي الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأفراد كل قبيلة، حيث يتداخل الجانب الاجتماعي مع الجانب الاقتصادي الذي يربط الواحة بالنسيج العمراني في شكل ثنائية متناسقة ومتكاملة في نفس الوقت، يضمن بقائهم ويجسد انتمائهم وتكتلهم ضمن فضاءات مشترك تحكمها مجموعة من قوانين، تستمد شرعيتها من موروث السلطة التقليدية داخل الهيكل الاجتماعي، تسعى من خلالها إلى تعزيز الروابط الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، في شكل صواميل قرابية متماسكة في نسقها و المتشابكة في مصيرها داخل هذا الفضاء الصحراوي، فالقبيلة والعشيرة من المصطلحات الآنية الأكثر تداولاً في سلوكيات وتفاعلات الأفراد مع بعضهم البعض في هذا المجال.

رغم سنوات من التمدن والتحضر إلا أنها تشغل لغاية الآن نموذج من نماذج الأوليغارشية بين تلك الوحدات الاجتماعية في نمط حياتها انطلاقًا من رابطة الدم والقرابة ثم المصاهرة، إنها كما يصفها ديفيد ماكليلاند ويعبر عنها بحاجة الأشخاص إلى الشعور بإحساس الانضمام، والإنتماء للمكان والهوية المجالية والمحلية المشتركة بين هذه المجموعات الإجتماعية قبل استقرارهم وتمدنهم، عبر مراحل كثيرة رواها لنا بعض الإخباريون الذين ينتمون إلى مدينة ورقلة في كثير من الجلسات و المقابلات.

إن السير في خضم هذه التحولات في هذه المدينة ومرافقتها منهجيا وميدانيا في ما يتعلق بالسكن وتعبيراته السيميولوجية، يحيلنا بطبيعة الحال إلى مجموعة الدلالات المادية والرمزية التي تمكننا من استجداء الكثير من المعطيات المعبر عنها من خلال الفاعلين في المجال الحضري الجديد، وحنينهم لأنماط الحياة الاجتماعية السابقة وعلاقاتها بأجزاء المسكن التقليدي وامتيازاته الوظيفية

[1] عبد القادر خليفة. "الحضرية في مدن الصحراء الجزائرية"، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة ورقلة، العدد 08، جوان 2012، ص 05.

التي لازالت تصارع الذوبان في سيل هذه التحولات العمرانية المتسارعة، هي الطرق التي يتبعها الأفراد لاسترجاع ماضي مجموعاتهم الصغيرة أو ما تخيلوه على أنه حدث حسب ليفي ستروس[1] ، لقد كان لنا نصيب من هذه الملاحظات الميدانية للنسيج العمراني التقليدي في مجموع التقاطعات المختلفة، عبارة على كيانات مادية بسيطة تتناسق وتتشابه مورفولوجيا في الشكل واللون.

كأنها تستحضر في مخيلتنا ما قاله غاستون باشلار عن جماليات المكان في وصفه للقضايا الجمالية والفنية في علاقة البيت بساكنيه والكون، يشكل لنا تلك التراتبية البنيوية التي يفصح عنها المجال الصحراوي بكثير من الدقة في الفهم والتأويل، إن المرور من خلال هذه القراءات الحية للتجمعات السكنية التقليدية داخل الواحة وتحليلها والاقتراب من أبعادها الدلالية والرمزية يبن لنا أن هذه التكتلات المادية لها ارتباط ايكولوجي ينسجم في أجزائه مع الفن المعماري الدقيق الذي يراعي في تخطيطه خصوصية تفضي إلى احتواء الأفراد والجماعات داخلياً، حيث نجد أن هذه السكنات تفصح لدى الملاحظ حيوية الحياة الاجتماعية في ذلك التشابه المتقن في تصاميمها الخارجية، والتشابك في أزقتها التي تتفرع إلى مجموعة من الممرات الضيقة والملتوية، والتي تعتبر شريان مفعم بالحياة داخل زوايا القصر العتيق، الذي بقي شامخاً وآهلاً بقاطنيه لغاية يومنا هذا، مقارنة بالقصور الأخرى الموزعة في الكثير من الفضاءات الصحراوية القريبة منها قصر تماسين بمدينة تقرت وقصر النقرين في جنوب مدينة تبسة، لقد رأينا الكثير من الأسر لازالت تعيش في قصر ورقلة العتيق، رغم تآكل غالبية السكنات التقليدية الصحراوية الخاصة بمجموعة البدو المتمدنين بعد زحف وامتداد نماذج النسيج العمراني الحديث مؤخراً كاستجابة لهذه التحولات، إنها كما يقول ستروس جماعات تستمد وجودها أولاً وقبل كل شيء من العلاقات الشخصية، ومن الروابط التي ينسجها الأقرباء والجيران في ما بينهم[2].

إن الباحث الأنثروبولوجي يمكن له ملاحظة وجود نوع من الذكاء البشري الايكولوجي في الهندسة التي يضفيها المجال الصحراوي في لوحة فنية منفتحة، يسعى من خلالها إلى تأسيس خطاب مكاني خاص ينصهر في صواميل من الهوية المجالية التي تحدد مدى ارتباطه بالمكان والزمان، فاختيار الحجر والجبس وجذوع النخيل كمواد أساسية هي في حد ذاتها دلالات رمزية تعزز الإنتماء لهذه البيئة الصحراوية، وفق ما توفره لهم من نمط معيشي وثقافي خاص، فالجبس و الطوب والماء وجذوع النخيل هي مقومات تمنحها الطبيعة للكائن البشري الصحراوي، لكي يتأقلم مع حرها وقرها وغبارها وأتربتها الموسمية، إنها ببساطة تهبه الحياة تحت كنفها و حمايتها.

[1] كلود ليفي ستروس، الأنثروبولوجيا في مواجهة مشاكل العالم الحديث، ترجمة: رشيد بازي، المركز الثقافي للكتاب، المغرب، 2019، ص 33.

[2] المرجع نفسه، ص 32.

1.1. تحولات النسيج العمراني التقليدي: بعد سياسي واقتصادي

قبل أن نخوض في مسألة المجال الحضري في مدينة ورقلة وجب علينا أولاً نبش الكثير من المعطيات التي يزخر بها الميدان ويطرحها في مورفولوجيا نسيجه العمراني المتباين التقليدي والحديث، والذي يمكننا من رصد حيثياته المكانية والزمانية في رهاناته الاقتصادية والاجتماعية والتي لها علاقة جدلية بتحول السكن، تمهيدا لفسح المجال الصحراوي نحو بوتقة التحضر والانفتاح على المدن الأخرى، إن هذه المعطيات تأخذ بأيدينا إلى مرحلة هامة من مراحل تطور المجال الحضري في الصحراء أي قبل الاستقلال، لقد كان الاهتمام بالصحراء من بين المشاريع الفرنسية الهامة والصعبة في نفس الوقت، حيث سعت من خلالها إلى تجسيد فكرة ربط الشمال الجزائري بعمق الجنوب نحو إفريقيا السوداء وهو من بين المشاريع الضخمة التي أرّقت الوجود الفرنسي مما أدى إلى حشد الكثير من الآلات والمعدات لهذا الغرض، انطلاقاً من مدينة ورقلة باعتبارها موقعاً استراتيجياً يمكن لها أن تحل هذه المعضلة الكولونيالية.

ومن أهم المشاريع آن ذاك هي بناء السكك الحديدية، ... حيث يعود هذا المشروع إلى النصف الثاني من القرن 19 م وبإيعاز من كاباني الذي اقتراح مد خط حديدي يمتد من الجزائر نحو بوسعادة وورقلة [1]، كل هذه التطورات والانجازات الكلونيالية كانت تهدف في مجملها على احكام سيطرتها على مدن الجنوب وخلق طريق يسهل عمليات انتقال الجنود الفرنسيين وعتادهم إلى عمق المناطق الصحراوية التي تتسم بخصوصيات مناخية صعبة، هذه المشاريع أثرت على القوافل التجارية للبدو الرحل خصوصاً بعد اقتحام السوق الأوروبي للمنافسة التجارية، حيث تقول عميراوي أحميدة ... لقد بدأ الفرنسيون يعطون أهمية كبرى للصحراء بعد اكتشاف المعادن وخاصة البترول و الغاز الطبيعي، واعتبر الفرنسيون في الخمسينيات من القرن 20م أن المعجزة ستكون من الصحراء[2].

إن هذه الفترة الكولونيالية الساخنة في مدن الجنوب الجزائري كانت تسابق الزمن في تجسيد وتسريع مشاريع وعمليات التعبئة الحضرية، والتي كان الهدف منها سياسي وعسكري بالدرجة الأولى، حيث واجهت القوات الفرنسية مقاومات شرسة من القبائل الأهالي من البدوية وأنصاف البدو بالمشاركة مع السكان المحليين الذين يقطنون قصر ورقلة آن ذاك، فما كان من القوات الفرنسية إلا مقاومة هذه القبائل عن طريق اخضاعها عبر تفتيت نسيجها العمراني، خصوصاً داخل القصر العتيق، حيث نتج عن هذه التحولات ازاحة السور الخارجي للقصر وكذلك ردم الخندق الذي كان يوفر الحماية

[1] أحميدة عميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844- 1916)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص 79.

[2] المرجع نفسه، ص 23

لسكانه، وبذلك كانت هذه المرحلة التاريخية بداية لإحداث التشوه داخل النسيج العمراني بمحاذاة قبيلة بني سيسين، عبر تهديم بعض السكنات التابعة لهم والعمل على توسيع الطريق المؤدي إلى ساحة الشهداء وصولاً إلى الساحة المركزية للقصر العتيق (أنظر الصورة رقم 01)، هذه التحولات التي مست النسيج العمراني التقليدي لها بعد سياسي، يهدف إلى معاقبة الأهالي عن طريق تشويه الخصوصية العمرانية انتقاماً لمشاركتهم وتدعيمهم للثورات المنددة بالوجود الفرنسي، وكذلك مراقبة حركة هذه القبائل عبر بناء العديد من الأبراج المخصصة للمراقبة، لقد أخبرنا (لزهر، ز، مبحوث): ... أن هذه البنايات يعود تاريخها إلى الاستعمار الفرنسي، وهي من بين المشاريع التجهيزية العسكرية، بعد الشروع في توسيع الطريق وهدم السور والعمل على إقحام سكان القصر في الحياة الخارجية بعيدا عن تلك الخصوصية التي كان يمتلكها من قبل بعد هدم أسواره، والعمل على استحداث منشآت جديدة تتمثل في كل من: المدرسة، الكنيسة، و عيادات طبية، وبعض المباني الخاصة بأفراد الجيش الفرنسي [1]

الصورة (01) : استحداث شارع داخل النسيج العمراني للقصر (الفترة الاستعمارية)

المصدر: إنجاز الباحث (الإعتماد على تطبيق Google Earth Pro، يوم 2019/04/05)

إن عمليات التعمير والتهيئة الحديثة التي شهدتها مدينة الواحات في بادئ الأمر، تعود إلى الوجود الفرنسي في هذه المنطقة واعتبارها مركز عبور إلى الصحراء الكبرى، فموقعها الاستراتيجي كان له أهمية كبيرة لدى المعماريين والمفكرين الفرنسيين، نظراً لاعتبارات عديدة خصوصاً أن هذه المنطقة من الصحراء غنية بالمياه المعدنية وكذلك الثروات الطبيعية، وأيضاً نقطة هامة تربط بين الشمال والجنوب، لذلك بدأت فكرة إعمارها بالتجهيزات الحديثة في الفترة الكولونيالية، وما تجسد ميدانيا هو

[1] مقابلة مع مبحوث. يوم 2018/09/17

حي لاسيليس الذي يحتوي بنايات متراصة ذات ملامح عصرية مدمجة مع النسيج التقليدي في شكل عمارات ذات طوابق، سميت بمشروع زهرة الرمال (Fleur de sable) وهو معروف لدى أهل المنطقة لغاية اليوم، والذي جاء بعد توسيع شبكة الطرقات لفك العزلة عن مدينة الواحات، ولعل من أهمها الطريق الرابط بين مدينة ورقلة و منطقة حاسي مسعود، وكذلك الطريق الطويل الرابط بين قسنطينة من الهضاب العليا، ليقطع الواحات الصحراوية تقرت، الوادي، ورقلة وجانت ليتحول نحو فزان بليبيا[1].

2.1. المجال الحضري والمجتمع: رهانات اقتصادية واجتماعية

إن المجال الحضري في الصحراء الجزائرية هو بمثابة عنوان لمرحلة جديدة مليئة بالرهانات المتنوعة التي يفرضها واقع التحول ما بعد الاستقلال، هذه المورفولوجيا المادية التي انتجتها ثقافة الفاعلين في المجتمع عبر العديد من التراكمات الايكولوجية الحتمية والاختيارية الثقافية المتنوعة، تعطي لنا بعداً أعمق من تحليلاتها الظاهراتية، فتشظي هذه الجزئيات من النسيج التقليدي وكذلك تحولات بنية الأسرة وبحثها عن مساكن مستقلة، هو مؤشر لتحول نمط الحياة الاجتماعية التقليدية تمهيدا لظهور مجتمع يقوم على أنقاض هياكل القوانين التقليدية والعرفية للجماعات الاجتماعية (قبائل، عشائر)، في شغلها للفضاء الصحراوي الجديد فهي تمد الفاعلين بمعان لأفعالهم، وتضبط إيقاع الحياة الاجتماعية والحياة الداخلية [2]، إن مرافقة هذه التحولات تستلزم من الباحث براديكما يمكن لها استحضار تلك الوقائع البعيدة والتي من خلالها يمكن لنا تفسير هذه الأحداث الرّاهنة وفهم تجلياتها في هذا الجزء الخاص بنمط حياة المجتمعات الصحراوية في مدينة ورقلة بالضبط.

ربما يتساءل البعض عن هذه الفسيفساء في التركيبة البشرية لمدينة ورقلة، هذه التقاطعات المختلفة باختلاف الفاعلين فيها، إنها ببساطة واركلان مدينة الحضارة الضاربة في عمق جذور التاريخ البشري بكل حيثياته، إنها مدينة القصور المنحوتة في شكلها الفني الطلق، التي أوجدها وتفاعل معها سكان الجنوب الجزائري منذ القدم في كل من جدرانها وأزقتها وأبراجها، لتعبر عن هويتهم وثقافتهم ونمط عيشهم وتعايشهم مع هذه الصحراء القاحلة و الوعرة، إنها تحفة قصر ورقلة العتيق وبعض السكنات الموزعة عبر هذا الفضاء الصحراوي المميز، إنها ترجمة ثقافية إيكولوجية تصف لنا عبقرية الإنسان القديم الذي عاش في الصحراء وهوامشها بعد أن ألف حرّها و قرّها، وتعايش معها ليومنا هذا في نقاط مجالية متعددة تبين لنا التقاء الثقافات وتقاطعها في تلك الفضاءات (الواحة، النسيج العمراني)، من خلال الكثير من الممارسات التي تبدو بغاية الوضوح في كل من قصرها العتيق، الذي

[1] أحميدة عميراوي وآخرون. مرجع سابق، ص 18.

[2] جيامبيترو جوبو، إجراء البحث الإثنوغرافي، ترجمة: محمد رشدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ص 337.

تجتمع فيه قبائل بني سيسين وبني واقين وبني ابراهيم كجسد واحد يتقاسمون مصيرهم المشترك داخل وخارج أسواره، لتمتد هذه التقاطعات إلى أماكن استقرار البدو بعد تمدنهم في كل من بني ثور، ورويسات، والمخادمة، وسعيد عتبة، إنها نماذج سكنية لا زالت مفعمة بالحيوية والنشاط، تصارع من أجل البقاء، ثابتة في مخيال قاطنيها قبل وبعد انغماسهم في ركب الانفتاح والتطور، فبرغم من هذا الاستحضار التقليدي المقتضب لنمط حياة هذه المجموعات الاجتماعية، لم تعد تعطي في تجلياتها تلك الصورة النمطية الموجودة في مخيلتنا وذاكرتنا عن نمط الحياة الصحراوية، إنها عالم مغاير ؟، واقع جديد حتميات جديدة، نسيج عمراني وبشري مختلف..! يرسم لنا صورة أنماط حياتية حديثة غير واضحة المعالم تتجلى في تصوراتها للعيان.

إن تغير نمط السكن خصوصا في الفترة ما بعد الاستقلال في النصف الثاني من القرن 20 م، تزامنا مع اكتشاف مصادر الطاقة المتنوعة التي تزخر بها الصحراء، ودرجة التصنيع وأشكال التكنولوجيا المنتشرة في الآونة الأخيرة، وكذلك التغيرات على مستوى طبيعة البينة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للجماعات الاجتماعية المختلفة، هي من بين العوامل المغذية لهذه التحولات السريعة التي كان لها أثر واضح في تغير شريان النشاط الزراعي المعهود لسكان الواحة، وحثهم على ضرورة الانتقال من ممارسة زراعة النخيل وتجارة التمور وتربية الحيوانات، إلى الاندماج في الأنشطة الحضرية الحديثة الأكثر مرونة والأقل جهداً ووقتاً من نشاطاتهم التقليدية، حيث يرى رولف زيغلر أن الوضع الاستراتيجي للتفاعل عبر حوافز التجارة، هي في حد ذاتها نوع من آليات التفاعل [1]، بين الأفراد والجماعات.

كل هذه التحولات ساهمت في خلق ودفع شحنات متسارعة ومكثفة تعمد إلى تدوير باكورة التنمية المستدامة التي مست أرضية الأنسجة العمرانية التقليدية، لتخلق مفاهيم متعددة تسوغها التحولات المجالية حيث تصبح الأسرة الصحراوية عنصرًا بارزًا في هذه التحولات كنوع من استراتيجيات إعادة الاستقرار و التمدن، عبر استحداث مجموعة من الفضاءات الجديدة داخل تلك التقاطعات الخاصة بالواحة، إننا اليوم نرى زحف هذا النسيج المحمل بترسانة معمارية ضخمة يقتحم أماكن تواجد السكان المحليين وأيضاً أماكن القبائل البدوية المستقرة في الأحياء الكبرى لمدينة ورقلة.

إن إعادة ترتيب أجزاء المسكن له بعد دينامي واقتصادي في مجموع تلك الفضاءات التي كانت تشغل وظائف حيوية للارتباط و العبور، فكل نظام اجتماعي فرعي، يعتمد على الآخر في إشباع حاجاته

[1] Rolf Ziegler. The Kula Ring of Bronislaw Malinowski: A Simulation Model of the Evolution of an Economic and Ceremonial Exchange System, Bayerische Akademie der Wissenschaften, Germany, 2007, p 06.

و أداء وظائفه، ومن ثم فإن كل الأشكال ومظاهر النظم الاجتماعية، هي مترابطة في ما بينها وظيفياً[1]، في تعبيراتها الطبونيمية المكانية التي تفسح المجال العام للالتقاء وممارسة العادات والتقاليد مع الجماعة الإجتماعية القرابية، لتصبح اليوم ملاذ اقتصادي يسيل لعاب الفاعلين في المجال الحضري الجديد، بعد توسيع شبكة الطروقات وانفتاحها على الأحياء الأخرى.

2. السكن الحديث رهان عقاري اجتماعي وثقافي:

إن السكن سواء كان حديثاً أو تقليدياً فهو يمثل هوية قاطنيه، أي أنه المرآة التي يمكن من خلالها بناء العديد من التصورات التي تحدد الحالة الإجتماعية والإقتصادية التي تميزهم، فمراحل التطور والتحول التي شهدها السكن في الآونة الأخيرة في فضاء مدينة ورقلة، ما هو إلا تعبيرات عن حالة من الأنوميا الإجتماعية نحو إرساء بوادر للتحول والإنتقال من الحياة البسيطة إلى الحياة المعقدة والوصول إلى مرحلة المجتمع والحضرية، هي إفرازات حتمية التطور الذي غير في بينة الأسرة و أدى إلى تحولات السكن في علاقة جدلية طويلة المدى، إنها بمثابة دائرة دينامية تحتضن مفاهيم الصهر الثقافي (Assimilation) بين العديد من النخب الإجتماعية في بناء المجال الحضري الحديث في مدينة ورقلة. . !!، إذا هل هو إنتماء أم إندماج..؟.

إن الإجابة على هكذا طرح مهم يتطلب معرفة عميقة بمجموعة النخب الإجتماعية الموزعة في شكل فسيفساء بشرية غير مترامية الجوانب تثبتها التقاطعات المختلفة لكل من السكان المحليين والبدو المتمدنين والوافدين الجدد في شكل تعددية (Pluralism) توضح العديد من الإختلافات في الممارسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، التي يتشكل من خلالها نمط النسيج العمراني ويتمايز في أجزائه ومكوناته.

إن تحولات السكن هي ترجمة لتلك العلاقة الجدلية البنيوية بينه وبين الأسرة الصحراوية، أي أن السكن يتأثر ببنية الأسرة وكذلك الأسرة تتأثر هي الأخرى بتحولات السكن، خصوصاً بعد تراجع نماذج الأسر الممتدة و بداية اضمحلالها في المجتمع الورقلي، إننا الآن نشهد تراجع هذا النموذج من الأسر التي كانت بالأمس القريب رأسمال بشري اقتصادي واجتماعي داخل كل قبيلة من هذه القبائل التي تستوطن الصحراء، إنها بمثابة تكتلات اجتماعية تنظمها ضوابط السلطة التقليدية والتي تثمن هذا النموذج من بنية الأسرة، فارتباط الأسرة الصحراوية بالواحة لدى مجموعة السكان المحليين وكذلك ارتباطها بالرعي والترحال لدى مجموعة البدو هو دليل واضح المعالم يبين لنا نمط حياتهم التقليدية.

[1] علي حسن الصغير، التوافق البنيوي بين النسق القرابي والمجال العمراني قصر ورقلة، دار الأشرف للكتاب العربي، الجزائر، 2018، ص 132.

1.2. المكانة الاجتماعية وعلاقتها بتحول السكن:

إن التحولات الاقتصادية التي فرضتها عوامل الشغل داخل مدينة الواحات خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين، أدت إلى احداث شرخ في نظامهم الاقتصادي التقليدي الذي كانت تنتهجه الجماعات الاجتماعية وتعوّل عليه كثيراً في نمط عيشها واستقرارها منذ زمن بعيد، فالتحولات التي شهدتها الفترة الأخيرة أثّرت على البنية المورفولوجية المادية للنسيج العمراني، مع بداية ظهور التمايز الطبقي (Différenciation de classe) نتيجة فوارق المكانة الاجتماعية (Social status) بين الأفراد والجماعات داخل النسق الاجتماعي الصحراوي، إن التحولات التي يمر بها السكن في مدينة ورقلة يرجعه فيبر إلى التباين الاقتصادي الذي يفرضه سوق العمل، حيث يعتبر أن هذا التباين هو الذي يحدد العلاقات الطبقية بين الأفراد اجتماعياً واقتصادياً، والتي كانت في ما مضى غير واضحة في دلالاتها الاقتصادية داخل نسيجهم العمراني التقليدي، التي كانت تنص على احترام مميزات الطابع الإيكولوجي للسكن داخل النسق الإجتماعي، لاعتبارات مورفولوجية مادية تعبر عن هوية أصحابها ومكانتهم الإجتماعية والإقتصادية في نظامهم الإجتماعي.

يقول ابن خلدون ... اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي[1]، لذلك لا يمكن أن تلاحظ وجود تلك الفوارق في تدرجهم الاجتماعي والاقتصادي من خلال المعطيات الدلالية للسكن، مثلما نلاحظه الآن في نسيجهم الحديث والمتباين في أجزائه ومركباته، فالتفسير الأنثروبولوجي لتغير نمط السكن وتحوله داخل النسيج العمراني التقليدي، ما هو إلا إعادة ترتيب مكانة الأفراد إجتماعياً، لذلك نعتبر أن السكن ليس بناء مادي فقط إنما هو بطاقة لهوية لقاطنيه.

إن السكن ضرورة دينامية وحتمية للاستقرار حيث يسعى الأفراد إلى تحسينه وتعديله باستمرار لأنه يمثل لهم العالم في شكله الصغير الذي يحتضن بين عرصاته كل تلك التفاعلات والسلوكيات الحميمية بين أفراد الأسرة ليشمل كذلك القبيلة والعشيرة في حيزها الواسع المتمثل في امتداد قرابة الدم والمصاهرة ، إنها مجموعة من التفاعلات التي يحتويها المجال الصحراوي بعد انفتاحه على الثقافات الأخرى المتنوعة، والتي كانت سبباً في استقطاب العديد من النماذج والتصميمات الهندسية المختلفة عن الهوية المجالية الصحراوية، انطلاقاً من مجموع الاحتياجات الحضرية وصولاً إلى تحقيق

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 92.

الكماليات الأكثر مثالية في نموذج السكن باعتباره أيقونة الهوية المجالية الجديدة في مدينة الواحات، والتي نجدها في شكل نمط الفيلات والسكنات الفخمة التي تتوزع على الفضاء المادي ككل، ترتبط وتتشابك في طبونيميا أماكينية خاصة باستقرار هذه المجموعات الاجتماعية في شكل تقاطعات مختلفة داخل النسيج العمراني لكل من بني ثور والرويسات والمخادمة و سعيد عتبة، ومما يثير الدهشة أيضاً رؤية بعض هذه النماذج السكنية وهي تجتاح أروقة القصر العتيق لتخلق ذلك التمايز بين ما هو معاصر وما هو تقليدي في نسيجه المتداخل و المتباين، هذا التمايز في السكن هو بالضرورة تمهيد للتمايز الطبقي بين النخب الاجتماعية وظهور الطبقة البرجوازية والبروليتارية مع بعضهما في المجال الحضري الجديد في شكله الغير متناسق، حيث يقول (مصطفى، مبحوث) رب أسرة مكونة من سبعة أشخاص له سكن أرضي بنموذج عصري في منطقة بوعامر، عامل في قطاع التربية و التعليم:

الطابع المعماري القديم في مدينة الواحات له مميزات ايكولوجية خاصة، بحيث يتناسب مع مناخ الصحراء الحار صيفاً والبارد ليلا في الشتاء، كذلك هو التصميم الهندسي الذي تتميز به السكنات التقليدية لدى البدو المتمدنين والسكان المحليين القصر العتيق فهو نسيج عمراني متكامل ومتراص يغلب عليه التشابه في أجزائه الداخلية ومكوناته الخارجية، يوحي لك بعدم وجود التمايز الطبقي بين أفراده فالكل يتشاركون في نفس العمل سواء ما تعلق بجني التمور والاعتناء بالنخيل أو ممارسة التجارة عبر القوافل التي تجوب هوامش الصحراء، أما الآن نجد أن هناك تحولات على مستوى النشاط الاقتصادي الذي أثر على تحول النسيج العمراني تدريجياً من التمايز إلى الاختلاف [1]

إن تصميم السكن وتغيّره في مدينة الواحات إما من ناحية الترميم الجزئي أو إعادة هيكلته بالكامل في حلته المغايرة و المختلفة عن الفن الإيكولوجي المميز لسكان الجنوب، ما هو إلا امتداد لتغير الأدوار التي يشغلها الأفراد والجماعات في ظل التحولات الإقتصادية الجديدة، واندماجهم في مجموع الوظائف الجديدة التي يفرضها عالم الشغل معلناً بداية التدرج الإجتماعي من جهة، وبداية التمايز الطبقي من جهة أخرى، بعد الانتقال من ممارسة الأنشطة التقليدية مثل زراعة النخيل وجني التمور لدى السكان المحليين، كذلك تربية الحيوانات وممارسة تجارة القوافل لدى البدو قبل وبعد تمدنهم لتظهر لنا هذه الفوارق التي تسعى إلى بناء مجتمع له رؤية مختلفة تتناسق مع تطلعاته وطموحاته في محيطه الحضري الجديد.

فتحولات السكن هي بالضرورة تحولات في الأدوار التي تشغلها المجموعات الإجتماعية في تضامنها العضوي وتفاعلها مع الكومونات الاقتصادية التي تقرّها المدينة وتعترف بها داخل روابطها الاجتماعية الحديثة.

[1] مقابلة مع مبحوث، يوم 2018/09/23.

2.2.العمارة تحولات حتمية بين الرفض والقبول:

لاشك أن هذا العنوان يحمل في طياته الكثير من الغموض، رغم ما يشوبه من تناقضات صارخة، تحيل القارئ إلى الكثير من المفاهيم المتداخلة و التساؤلات المتشعبة في مجموع الأفكار والتصورات، كيف يمكن أن تصبح العمارة واجهة ثقافية معمارية مميزة لمدن جنوبنا الكبير. .؟؟، إن مثل هذه التساؤلات تحيلنا إلى تتبع ومسايرة بعض المراحل الزمنية قبل وبعد هذه التحولات في المدن الصحراوية، لذلك نحن نقف الآن وقفة تأمل أنثروبولوجية في العديد من زوايا الثقافة المعمارية في مدن الجنوب باعتبارها همزة وصل بينها وبين قاطنيها، بين ذلك الماضي البعيد الذي بقي عالقاً في الكثير من رواسبه المادية، وبين هذا الحاضر الدينامي في أشكاله وتحدياته ومفرزاته، نستحضر في هذا الصدد قول براندون دي لوندي ... يجب أن يكون الشخص قادرًا على إلقاء نظرة على فضائه المادي في جماليات المجال كقطعة فنية [1]، إنها بالفعل حلقة تستحق التأمل باعتبارها حتمية مرجعية كرونولوجية تمكننا من فهم العمق الثقافي لمدينة الواحات (ورقلة).

هل يمكن أن نعطي لمثل هذه المفاهيم المرنة والمتعلقة بالتحولات المتسارعة بعد ابستيمولوجي يضع مدن الجنوب في ضوء هذه التحديات الرّاهنة التي تمهد لها الطريق نحو الاندماج والتحضر. .!، في خضم العديد من التراكمات الثقافية والاجتماعية الهامّة، والتي كانت بالأمس القريب أحد أهم الركائز المتعلقة باستراتيجياتها التي تنتجها ويتفاعل معها الأفراد والجماعات، في سلوكيات حياتية خاصة داخل فضائهم المميز في تعابيره وحضوره وتجلياته ما قبل الحضرية، إنها بالفعل صيرورة يجب علينا كباحثين أن نقف على جوانبها المتعددة والمتشعّبة في نفس الوقت، أي أنها مسايرة لحجم هذه التحولات ومدى إدراكها وتقبلها عند هذه الجماعة الاجتماعية التي تعيش في الصحراء (بدو متمدنين، أنصاف البدو، سكان محليين)، بعد أن استفاضت بها سياسة التعبئة الحضرية وسارعت نحو إرساء تخطيطات عمرانية مغايرة، يمليها التحول ويتحكم في جزيئاتها البسيطة والمعقدة في آن واحد داخل بنائهم الاجتماعي،

إنها بالفعل مسايرة ظاهراتية للبراديغم الخاص بالبنيات الاجتماعية التي تستحق منا التأمل من مختلف زواياها مرورًا باشكالية الهوية الثقافية والإيكولوجية وعلاقتهما بالمجال الصحراوي ككل، ولعلنا في هذا المقام نعرج على إعادة فهم ديناميات النسيج العمراني وتحولاته في مدينة ورقلة بعد انفتاحها على باقي المدن الجزائرية الأخرى، بعد إعادة هيكلة وتشكيل المدينة بمتطلباتها الحضرية

[1] Brandon D. Lundy. The Art of Anthropology, The Anthropology of Art, Newfound Press The University Of Tennessee Libraries, Knoxville, Virginia, 2011, p 02.

والبعث على تجسيد مشاريع التنمية المستدامة توازناً مع تطور وتنوع النشاطات الفلاحية و التجارية في المدينة، وكذلك نمو وتأثير العديد من الشركات و المؤسسات الحكومية والخاصة والتي أتاحت بدورها الكثير من الفرص لاستقطاب اليد العاملة من داخل وخارج المدينة، باعتبارها قطب جاذب يحقق للكثير من الأفراد مجموعة من مشاريع المربحة في ظل هذا التشكل المجالي والانفتاح الحضري.

إن هذه الحتميات الاقتصادية الآنية رهان عقاري واجتماعي بامتياز، يحقق للمدينة بعدا استراتيجيًا في كافة مجالاتها التنموية، إلا أن هذه المجالات يجب أن تحظى بالكثير من الدراسات الاستشرافية التي تحقق نوعًا من التوازن في ما يتعلق بنمط الحياة الاجتماعية وكذلك البعد الإيكولوجي المميز لهذه المدن الصحراوية، والعمل على مراعاة جوانب تحولات نسيجها العمراني نتيجة النمو الديمغرافي السريع، ومسايرة الحضور الضاغط للوافدين الجدد الذين يتوزعون في فضاءات المدينة المختلفة (الخفجي، سكرة، الرويسات، بني ثور، بامنديل، بوعامر، غربوز... إلخ)، هذه النخب الاجتماعية الجديدة تشغل العديد من الوظائف والمهن المتنوعة في المدينة، مما ساعدهم على بناء استراتيجية محاولة الاستقرار أولاً، ثم بعد ذلك تجسيد هذه المحاولة بشكل نهائي عبر العديد من المراحل في عملية استقرارهم، هذا النمو المتزايد في مدينة الواحات ساهم في ظهور أحياء جديدة ذات طابع حديث ومستورد من المدن الشمالية.

فالتحول في النسيج العمراني الصحراوي خصوصًا في نواته المركزية المتعلقة بالسكن، هو بالفعل تحول من الحتميات البيئية التي كانت لها رؤية واضحة ومتجذرة يستقيها الأفراد في بنائهم للسكن ومن ثم توسيع نموه في شكل نسيج يكفل نظامهم الاجتماعي ونسقهم القرابي كوحدة متراصة من العلاقات التراتبية المتبادلة بينهم تحت وصاية السلطة التقليدية، من الجانب الآخر تظهر عبقرية الإنسان الذي عاش في الصحراء وعلم كيف يتعايش معها ليكتسب هندسة خاصة بفضائه ويحاول بعث روح الحميمية في تلك الكيانات المادية المتعلقة بمجالات العبور والارتباط داخل وخارج السكن ليتفاعل مع محيط يوفر له الحماية من الآخر المجهول (إنسان، حيوان)، دون إغفال الهندسة الذكية في التعايش مع التقلبات الطبيعة الصحراوية في فصولها الأربعة (الرياح، الأتربة، درجات الحرارة المرتفعة... إلخ)، لنرى الآن ذوبان هذه الحتمية الإيكولوجية المتوارثة في ثقافتهم السوسيومجالية، لتقوم على أنقاض هذه الأخيرة مجموعة من الاختيارات الثقافية المبنية على الانفتاح والتلاقح مع الثقافات الأخرى، نتيجة التحولات التي أفرزها التطور الرهيب في التكنولوجيا وأدواتها وانتشارها في أغلب النّقاط البعيدة من العالم.

إن هذه الاختيارات هي المحرك الأساسي الذي يجب أن نعنى به كأنثروبولوجيين في دراستنا لهذا الموضوع، فالتغير الملحوظ في نمط السكنات والأحياء رغم تطورها وامتلاكها لمقومات الرفاهية

التكنولوجية لا يمكن لها أن تغيّب هذا المناخ الصحراوي كبيئة حتمية قاسية لها مميزاتها وتأثيراتها داخل المجال العمراني بشكل عام.

من الملفت للإنتباه أثناء زيارتنا الميدانية للعديد من الأحياء الجديدة وحتى القديمة وجود ترسانة ضخمة من السكنات العمودية كأحد أهم البرامج والمشاريع الخاصة بالتعبئة الحضرية في مدينة ورقلة والتي تنتهجها مديريات السكن و التهيئة و التعمير منذ أواخر القرن 20 م في مدن الجنوب الجزائري، حيث نجد أكثر من 24495 وحدة سكنية موزعة في مدينة ورقلة بمختلف أنواعها منذ سنة 2005 إلى غاية الآن، تتوزع على كل من السكن العمومي الايجاري والسكن الاجتماعي التساهمي والترقوي المدعم والترقوي العمومي و البيع بالإيجار و الإلزامي، وأيضاً هناك 10068 وحدة سكنية في طور الانجاز وموزعة على الأحياء الجديدة والقديمة في مدينة الواحات[1].

هنا يمكن لنا أن نطرح العديد من التساؤلات السوسيو أنثروبولوجية والسوسيو مجالية في نفس الوقت، هل يمكن أن يصبح هذا النمط الجديد من نماذج السكنات العمودية هو النسيج العمراني المميز لمدن الجنوب ما بعد الحضرية...؟

يبدو أن هذه النماذج من السكنات يمكن أن تصبح رائدة في مدن الشمال الجزائري نظرا لاعتبارات عديدة أهمها ضيق المساحات المتوفرة للبناء، كذلك طبيعة التضاريس الخاصة ببعض المدن التي تحيط بها الجبال من كل جانب بحيث تقل فيها الفضاءات الفارغة المخصصة للبناء والتعمير، هنا يصبح هذا النمط من السكنات العمودية هو الخيار الأمثل كنوع من استراتيجيات التعبئة الذكية، لاستغلال هذه الفضاءات الفارغة وتوفيرها عكس أنماط السكنات الأفقية التي تجتاح الفضاءات بشكل أفقي، ومن العجب أن نجد هذه الاستراتيجيات والتخطيطات العمرانية الخاصة والمميزة لمدن الشمال تحاول أن تمد جسورها لتصل لعمق الصحراء، هذا الإسقاط العمراني هو نوع من الإجحاف في فهم البعد النفسي والثقافي والاجتماعي لهذا الإنسان الذي يعيش في الصحراء ويرتع في هوامشها، ليجد هذا الأخير نفسه مجبراً على تقبل أنماط سكنية جديدة يبدو عليها الإختلاف في الألوان الخارجية فقط (أنظر الصورة رقم 02)، تشتمل على مجموعة من الوحدات العمرانية تتشابه في أجزائها ومكوناتها الداخلية.

إن أغلب المبحوثين المستفيدين من هذه النماذج من السكنات العمودية قد تنازلوا عليها بعقود البيع أو الكراء والعودة إلى نواتهم الأصلية إما في القصر العتيق أو مناطق البدو المتمدنين حسب ما أفادت به أفواه الفاعلين في المجال الحضري الجديد من أفراد وجماعات، إن هذا النمط يثير العديد من التساؤلات من قبل الباحثين في مجال علم الاجتماع الحضري و الأنثروبولوجيا الحضرية بشكل

[1] مديرية السكن لولاية ورقلة، زيارة ميدانية سنة 2019.

خاص، نظراً لأن هذا النموذج يعتبر طفرة سكنية ذات هوية دخيلة على النسيج العمراني المتجذر في مدن الجنوب الجزائري، يقول أحد الإخباريين من منطقة المخادمة (خ، م) :

لقد استفدت من سكن اجتماعي منذ أكثر من سبع سنوات إلا أنني قمت بكرائه ثم بيعه بعد ذلك، لم أستطع أن أعيش في هذا النمط من السكن لأنه لا يحفظ خصوصية الأسرة داخل أجزائه الضيّقة، إلى جانب وجود العديد من الأسباب الأخرى منها وجود باب مشترك لجميع سكان العمارة، كذلك وجود جيران لا تربطنا معهم أي صلة قرابة أو مصاهرة، لذلك عدت إلى الحي الذي كنت أقطن فيه بعد مرور أشهر قليلة من تساكني في العمارة [1]

إن المرور من خلال البنيات الاجتماعية وتتبع تفاصيل أنظمة القبائل والعشائر في نمط حياتها داخل مدينة ورقلة، يحيلنا إلى فهم واستنطاق علاقة الساكنة بسكنهم ومحيطهم في نفس الوقت، ليتسنى لنا بناء تصور واضح حول خلفيات العمارة كنموذج سكني يترنح بين الرفض والقبول لدى هذه المجموعات الاجتماعية الصحراوية، فالسكن هنا يتمتع بأهمية ثقافية واجتماعية بالغة الأهمية يمكن ملاحظتها ورصدها في العديد من التصميمات الهندسية الخاصة بنسيجهم العمراني التقليدي الذي بقي شاهداً لغاية يومنا هذا، هذه الهندسة تعطي للسكن بعدًا ايكولوجيًا واجتماعيًا يتناسب مع هذه الخصوصية المجالية، فهو كيان مورفولوجي حيوي ينغلق في أجزائه ومكوناته عن الخارج و ينفتح نحو السماء في أجزائه ومكوناته الداخلية، لذلك نلاحظ أن السكنات التقليدية تكاد تخلو من وجود النوافذ الخارجية في جدرانها الصماء لتعوض هذا الغياب ببعض الفتوحات الصغيرة الخاصة بالتهوية، حيث ... يسهم المناخ بدور كبير في قدرة الانسان على العمل و الحركة كما يؤثر على تصميم المباني التي يسكنها[2]، في خلقه لمجموعة من الأجزاء التي لها وظائف خاصة توجه قاطنيه إلى الداخل، إلى البحث عن ذلك الاحتواء بين أفراد الأسرة في علاقاتهم الحميمية في سكينة شبه تامة.

من المهم أيضا نعرج في دراستنا هذه على أهمية علاقات الجيرة باعتبارها شريان الحياة رئيسي في تقسيم الفضاءات السكنية داخل مدينة الواحات، فالنسيج العمراني دائمًا يعتمد في مورفولوجيته على وحدة الجماعة الاجتماعية التي تربط بينهم علاقات القرابة الدموية والمصاهرة، فهي بالضرورة امتداد للّحمة الاجتماعية التي تحفظ الأفراد وتوفر لهم الأمن والأمان في حيزهم المغلق والخاص، لدى السكان المحليين والبدو المتمدنين في تقاطعاتهم المشتركة والمتشابكة باشتباك واحات نخيلهم، لقد رأينا الكثير من السكنات التقليدية وهي منفتحة في تصاميمها الداخلية فلا تستغرب وجود فتوحات داخلية تربط بينهم وبين جيرانهم لقضاء حوائجهم المختلفة في شكل تضامن آلي بين الأسر، فالتغيرات التي

[1] مقابلة مع إخباري: يوم 2018/09/24.

[2] يحيى وزيري. العمارة الاسلامية والبيئة، عالم المعرفة، الكويت، 2004، ص 09.

تمس جانب النسيج العمراني باستحداث مجموعة من الأنماط السكنية الجديدة (العمارة) لا يمكنها أن تحفظ هذا الجانب المهم في علاقات الجيرة نظرًا لسياسات التوزيع في هذه التحصيصات التي تراعي مجموعة من الأولويات المختلفة عن الواقع المعاش في مدن الجنوب الذي يملك هو الآخر رؤية مخالفة يسعى من خلالها الأفراد إلى تجسيد تصاميمهم الخاصة في امتدادهم عبر أراضيهم التي كانت جزء من الواحة في ما مضى بعد تآكلها وضياعها نتيجة قلة الاهتمام والعناية، إننا نشاهد ونلاحظ العديد من الأحياء الجديدة في النسيج العمراني المحيط بالقصر العتيق في شكله البيضوي الذي يفسح المجال لكل من بني سيسين وبني واقين وبني ابراهيم إلى إعادة إنتاج تلك الروابط التقليدية المتعلقة بالجيرة في تساكنهم خارج القصر، كذلك في امتداد النسيج العمراني لكل من المخادمة والرويسات و سعيد عتبة في أماكن استقرارهم عبر الكثير من التصميمات الهندسية الحديثة ذات طوابق تعطي لدى الباحث الكثير من المؤشرات والضمانات التي توفرها الأسر الصحراوية لأفرادها في نمط حياتها الآني تماشياً مع استراتيجيات الاندماج في الحضرية.

الصورة (02): توزع نمط العمارة في حي النصر (الخفجي)

المصدر: إنجاز الباحث (الإعتماد على تطبيق Google Earth Pro، يوم 2019/04/04)

خاتمة:

إن هذه القراءات الأنثروبولوجية المتأنية والمتسرعة في نفس الوقت والتي يمكن ملاحظتها عبر تحليل مضامين هذا الموضوع المهم، والاقتراب الفينومينولوجي من أبعاد هذه الظاهرة المتشعبة في مفرزاتها، توحي لدى القارئ المختص أن هناك صعوبة حقيقية في تتبع هذا البراديغم البنائي وفهمنا من خلاله لتحولات السكن والتساكن في مدينة صحراوية قيد التشكل، إنها تركيبات بشرية مختلفة تتعايش مع بعضها البعض في فضاءات مترامية الجوانب، قبائل بدوية متمدنة حديثا وأخرى مستقرة منذ مدة طويلة، كلها كيانات فاعلة في المجال الحضري الجديد عبر العديد من الخطابات الضمنية والمعلنة في سلوكيات ثقافية واجتماعية واقتصادية، نجدها بوضوح في نمط نسيجها العمراني المتباين والغير واضح، كتعبير عن مجموعة من الاستراتيجيات والتفاعلات المعقدة في نمط حياتها، إنها بالفعل تستحق الاهتمام والالمام بها كمعطيات يطرحها البناء الاجتماعي، ويستقيها الباحث من خلال تتبع براديغم يمكنه من معرفة هذه الكيانات التي تحوي أجزاء متكاملة في الهيكل البنائي لهذا المجتمع الصحراوي، في رؤية أنثروبولوجية مستفيضة تحاكي هذه التحولات الدينامية في جزيئاتها وتركيباتها وعلاقتها بالفضاء الصحراوي.

قائمة المراجع:

1. ابن خلدون عبد الرحمان. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
2. جيامبيتروجوبو، إجراء البحث الإثنوغرافي، ترجمة: محمد رشدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014.
3. خليفة عبد القادر. "الحضرية في مدن الصحراء الجزائرية"، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة ورقلة، العدد الثامن، جوان 2012.
4. ستروس، كلود ليفي. الأنثروبولوجيا في مواجهة مشاكل العالم الحديث، ترجمة: رشيد بازي، المركز الثقافي للكتاب، المغرب، 2019.
5. الصغير، علي حسن. التوافق البنيوي بين النسق القرابي والمجال العمراني قصر ورقلة، الأشرف للكتاب العربي، الجزائر، 2018.
6. عميراوي أحميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844- 1916)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009 .
7. وزيري، يحيى. العمارة الاسلامية والبيئة، عالم المعرفة، الكويت، 2004.

8. Lundy, Brandon D. The Art of Anthropology, The Anthropology of Art, Newfound Press, The University Of Tennessee Libraries, Knoxville, Virginia, 2011.
9. Sperder, Dan. « L'étude anthropologique des représentations, problèmes et perspectives », in les représentations sociales sous la direction de Denise jodelet, sociologie d'aujourd'hui, Puf, Paris, 1989.
10. Ziegler, Rolf. The Kula Ring, of Bronislaw Malinowski A Simulation Model of the Evolution of an Economic and Ceremonial Exchange System, Bayerische Akademie der Wissenschaften, Germany, 2007.